مقال

القدس الحزينة... واليد الممدودة... بالاستيطان!

بقلم: انعام رعد

خلال شهر حزيران (يونيه) ١٩٩٦ مناسبات مفرحة على نقيض ما حمل هذا الشهر للعرب من مآسٍ في حزيران ١٩٦٧ او حزيران ١٩٨٢ عند الغزو الاسرائيلي للبنان، ففي ١٤ - ١٦ حزيران انعقد لقاء القدس المميز والهام في بيروت تحت عنوان «مسلمون ومسيحيون معاً من اجل القدس». وفي ١٥ - ١٦ حزيران انعقدت قمة دمشق الثلاثية التي دعت الى قمة القاهرة العربية في ٢٢ حزيران. وفي المناسبات الثلاث استعيدت القدس الى واجهة الاهتمام وهي في احرج لحظات المحنة مكبّلة في سجن صهيوني يسقيها العذاب والسقم يزرع احياءها بالمستوطنين ويبدّل معالمها ويهجّر ابناءها وينفخ في اوداجها ورم الاستيطان بضم الاراضي المزروعة بالمستوطنات المغتصبة من اهلها لاقامة ما يطلق عليه الغاصبون «القدس الكبرى عاصمة اسرائيل الموحدة الى الابد».

وافجع الفواجع ان القدس في اتفاقات اوسلو تركت «لمفاوضات الوضع النهائي» سنوات لم تهدأ خلالها جرافات الاستيطان تبديلاً في المعالم ومصادرة في الاراضي وضغطاً على المقدسيين وزرعاً للمستوطنين حتى لا يبقى شيء يفاوض عليه عند حلول وقت التفاوض.

ورافق هذا الاغفال ان العرب باكثرهم نفضوا ايديهم وكأنهم اخذوا اجازة من القدس اعطاهم اياها اتفاق اوسلو. فذهب من ذهب الى العدو مصافحاً نادماً على ما وصفه «بالماضي الاسود»، أي ماضي الجهاد، وطبّع من طبّع، ووقّع من وقّع، ووضعت مسألة القدس على الرّف الا من قلة مؤمنة بالقضية بشموليتها.

وكانت الفجوة التي سدها لقاء بيروت انه لم يلتق المسيحيون المشرقيون والمسلمون في اطار موحد من قبل لاعلان صيحة مجلجلة للعالم الذي مال، خصوصاً في غربه، الى اسرائيل.

ان قمة دمشق استردّت القدس الى واجهة الاهتمام العربي في الوقت نفسه الذي كان ينعقد لقاء بيروت من اجل القدس بين المرجعيات المسيحية المشرقية والاسلامية لاطلاق نداء القدس، وهو نداء هام ومميّز ويستحق كل التقدير لأنه أكد أموراً خمسة اساسية:

أولها رفض ارجاء مسألة القدس كما في اتفاق اوسلو بل طرحها على انها كما وصفها نداء بيروت المقدسي «مسألة القدس عندنا هي أم المسائل» ولأنها كذلك «فلا يطمئن لنا ايمان ما دامت القدس في الأسر، والقدس مسألة لا يجوز اجراء الحديث عنها ولا تأجيله».

ثانيها بل أهمها ان القدس ليست مقدسات بدون المقدسيين. «والا غدت المقدسات متاحف»، وبالتالي «اعادة وصل القدس بفلسطين وهي منها بمنزلة القلب».

ثالثها انه «لا توجد سلطة في العالم تملك حق تهويد القدس او تدويلها او تنزع صفتها العربية الاسلامية - المسيحية عنها على مستوى العالم» و«اعلان عدم شرعية المستوطنات وضرورة ازالتها وايقاف عمليات الاستيطان اليهودي» وبالتالي «ان القدس شعبها ابناؤها الفلسطينيون الذين سكنوها جيلاً فجيل منذ كانت القدس فلم ينقطعوا عنها ولا عرفوا سواها عاصمة».

رابعها، ان النداء يؤكد وحدة وطنية في سبيل القدس تخاطب العالمين المسيحي والاسلامي بموقف مفهوم موحد «فلسنا حيالها فرقاً وليس بيننا من يريدها على اسمه وحده، نحن مقدسيون بالانتماء والحب». وقيمة هذا الموقف الموحد انه قرر فتح ملف «التراث الابراهيمي» الذي تستغله وتتوسله الصهيونية لا سيما في الغرب، وذلك كما جاء في نصّ قرارات اللقاء المقدسي «لتحديد الموقف من الفكرة الصهيونية التي تزعم الاستئثار بهذا التراث وتزعم قيام دولتها على ادعاء صفة الشعب المختار».

وهو أول تحدٍ مسيحي مشرقي - اسلامي موحد ضد الاساس الذي بنت عليه الصهيونية خيوطها العنكبوتية في الذهن الغربي المسيحي خاصة انطلاقاً من ادعاء «الشعب المختار وأرض الميعاد» بتسليط الدعامة التوراتية للفكرة الصهيونية.

خامسها ان اللقاء قرر ايجاد امانة دائمة لمتابعة ما اوصى.

ان ما صدر عن هذا اللقاء هام لأنه يشكل رداً موحداً ضد طروحات الاستيطان الصهيوني واستغلاله النواحي الدينية بتفسير خصوصي لخدمة اغراضه وتسويق اغتصابه وكأنه تنفيذ لارادة الهية سامية، وهو قطعاً موقف يمحو اثار الحروب الصليبية والتي يظن الاستعمار الغربي وبعض منظريه ومنظري الصهيونية انها مستمرة عبر المشروع الصهيوني أي بالواسطة هذه المرة.

فهنا أهل البلاد والمنطقة العربية بمراجعها الروحية المسيحية الشرقية والاسلامية يقفون وقفة واحدة على اساس هوية القدس ليست في الحجر بل في البشر في اهلها الذين لم ينقطعوا عنها منذ وجدت خلافاً لادعاءات الاستيطان وطابعه الطاريء.

ونقدر كذلك ان يتوافق هذا الاهتمام من المرجعيات الروحية مع اهتمام مؤثر من الرؤساء العرب انطلاقاً من قمة دمشق وما تمثله دمشق روحاً في وعيها لمكانة القدس في تراثها القومي الى القمة العربية في القاهرة.

وقد سقط من الذاكرة العربية والدولية ان التدويل شمل القدس كلها عند صدوره بما فيها الحي اليهودي الذي اغتصب قرى وبلدات فلسطينية في ١٩٤٨ بمجازر جماعية - دير ياسين وسواها - وأصبح القدس الغربية اليهودية، ومع الايام وبتخطيط صهيوني اسقط شمول التدويل الشطر اليهودي الاستيطاني واصبح بعد احتلال القدس الشرقية بمفهوم دعاته يقتصر على هذا الشطر وحده. واتبع المغتصبون النمط نفسه بالنسبة للقدس الشرقية بعد احتلالها فنشروا فيها استيطانهم خلافاً للقرارات الدولية واعلنوا ضمّها ولم يأبهوا لقرارات مجلس الامن المخالفة.

وتدريجاً جاراهم الموقف الاميركي الذي انتقل من رفض الاستيطان اليهودي واعتباره غير شرعي الى اعتباره منذ رئاسة رونالد ريغان «يعرقل عملية السلام» وهو وصف مخفف، الى دعم ابقاء القدس حتى «مفاوضات الوضع النهائي» أي حتى يكتمل الزحف الاستيطاني واعتبار أي مطالبة بها استباقاً لتلك المفاوضات اذا صدرت من الجانب العربي دون ايقاف لعملية ضمها واستيطانها وصولاً الى قرار الكونغرس الشهير. وجارى الموقف الاميركي في عدم المبالاة بمصير القدس الموقف الغربي اجمالاً وصولاً الى الاتفاق الفاتيكاني - الاسرائيلي الذي شكّل اعترافاً بالامر القائم ومحاولة ترتيب الوضع من ضمنه.

وفي الاتفاق الفاتيكاني - الاسرائيلي كما في اتفاق وادي عربة اصبحت القدس الاماكن المقدسة ووصول الحجاج اليها خارج اطار هويتها التاريخية. وهو ما رفضه نداء بيروت المقدسي رفضاً قاطعاً لأن القدس كما عبرنا عن ذلك مراراً في نقدنا مثل هذا المفهوم، ليست مسألة عبور الحجاج بل مسألة ثبات الانسان المقدسي في ارضه التي هي جزء من أرض الوطن. ولأن القدس الى كونها مدينة غالية من بلادنا فانها رمز روحي للتوحيد وللرسالات المسكونية لجميع بني البشر ومسخها يكون بتحويلها مدينة عنصرية، عاصمة الاستيطان العنصري الذي يقوم على نظرية «الشعب المختار».

في مخاطبتنا لقاء بيروت المقدسي أكدنا ان القدس جزء من فلسطين المغتصبة وان استيطانها وتهويدها جريمة بحق هويتها الوطنية والقومية وحق تقرير مصير الشعب الفلسطيني، كما ان استيطانها وتهويدها اعتداء صارخ على رمز توحيدي روحي للعالم بمسخه الى عاصمة عنصرية».

الا ان أهم ما لاحظنا هو ان مسؤولية المسيحية المشرقية التي نحيّي احبارها الذين منذ الياس الرابع وخطابه في المؤتمر الاسلامي في لاهور في ١٩٧٤ وهم يعتبرون القدس مسألة المسائل، في ان يحملوا حرارة ايمانهم بالقدس الى المسيحية الغربية التي لا تحس بالقدس كما تحس بها المسيحية المشرقية، فبدون القدس لا مسيحية بالنسبة للكنائس المشرقية، بينما التعاطي مع القدس من الغرب ومن الكنائس الغربية ليس بهذا المستوى لأن المسيحية الغربية الى حد غير قليل، وقعت تحت مفعول العقدة التي اوجدتها الصهيونية حول المحرقة النازية ووصمت بها كل اوروبا، بل الغرب كله حتى المعادي للنازية، فأصبح في الغرب الذي يبيح باسم الحرية حتى الكفر بالعزّة الالهية يطارد ويضطهد من يجرؤ على نقد سياسات اسرائيل او ادانة عنصرية الصهيونية اذ يكفي اطلاق نعت اللاسامية عليه حتى ينبذ ويحاصر كما حل بالفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي الذي لم يأبه أحد لتبدل معتقده من الماركسية الى نقيضها، ومن المسيحية الى الاسلام، فمن حقه ان يفعل ذلك في ظل مناخ الحرية، ولكن لا يحق له ان ينقذ الصهيونية لا هو ولا ذلك الانسان الناسك الذي بذل كل حياته من اجل الفقراء في فرنسا والذي قاوم النازية وانقذ اليهود. لقد انقلب الاب بيار الى عدو للانسانية لانه دعا الى طاولة مستديرة للحوار مع الفيلسوف غارودي.

بداية جيدة هذا اللقاء الروحي من اجل القدس.

ومفرح جداً ان تعود القدس الى مركز الاهتمام في القمة العربية، والمثل الاجنبي يقول «الأمر لو تأخر أفضل من عدم حصوله». ولكن القدس حقاً حزينة، كما انشدت فيروز، لأنها لم تحظ بالاهتمام الذي تستحق الا بعد ان اطبق عليها الاستيطان وهجّر اكثر بنيها.

ولقد سوق بيريز الحرب الصهيونية بتعليبها بالشرق اوسطية لتنفجر ناراً ودماراً في عناقيد الحقد في نيسان واحلافاً تمتد من واشنطن الى انقرة فيها قعقعة السلاح لا زهرة السلام.

اما نتانياهو فمصرّ على لقاءات القمة بدون... الشروط العربية والدولية، لكن بشروطه في توسع الاستيطان في القدس والضفة والجولان وغزة وبتحيّته المستوطنين على انهم الرواد في الصهيونية! ووزير خارجيته يعلن ان يده ممدودة.. بالسلام؟ كلا بل بالاستيطان!